

التراث الرّالي

إرادة الانسان فوق التحديات



مهدى العلوى

هوية الكتاب:

الكتاب: إرادة الإنسان فوق التحديات.

الكاتب: مهدي العلوي.

الطبعة: الثانية (١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م).

الناشر: مركز العصر للثقافة والنشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ
كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا

سورة الأحزاب: ٧٢

أمانة الحرية والمسؤولية

يمتاز الانسان عن غيره من الكائنات بامتلاكه لنعمة (الحرية). فهي ميزة فريدة لا يشاركه فيها أي واحد من المخلوقات.. ففي الوقت الذي يتمتع فيه الانسان بالحرية المطلقة تجاه الازواج والظروف والغرائز.. نجد الحيوان عبداً مطلقاً لغرائزه وشهواته.. وفي الوقت الذي يستطيع الانسان أن يتحكم في أهوائه ورغباته.. نجد الحيوان عاجزاً عن ذلك، فهو يبحث عن الطعام عندما يجوع، وينزو على الانثى عندما تثور غريزته، وينام في الوقت الذي يشعر بحاجته إلى النوم.. دون أن يمتلك أي خيار مقابل ذلك.. عكس الانسان تماماً.

كل واحد منا يتحسس أثر هذه (الحرية) في حياته، ويشعر

- في قرارة نفسه - بأنه كائن حر، يمتلك كامل القدرة على الاختيار دون أي إكراه أو جبر.. وأنَّ باستطاعته أن يتحكم في الغرائز، والأوضاع، والظروف.. وأنَّ يتحكم في سيرته وحياته.

والشعور بالحرية شعور فطري أودعه الله تعالى في الإنسان دون أن يكون للاوهام أو التخييلات أي أثر فيه.

ويعتبر القرآن الحكيم هذه الحرية (أمانة) عند الانسان، وبها يمتاز الانسان عن سائر المخلوقات في السماء والأرض:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ [الحرية والمسؤولية] عَلَى السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ
إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^١.

والشعور بالحرية يتيح للانسان فرصة التغيير، والفرد الذي يرى نفسه أقل من مستوى التحدي للظروف، للذات، للآخرين.. ليس باستطاعته أن يتحدى واقعه، وأن يثور عليه ويغيّره الى الأفضل. بينما الذي يرى نفسه حراً يكون باستطاعته تغيير الذات،

١- سورة الاحزاب، آية ٧٢.

والحياة، والمجتمع.. إنطلاقاً من شعوره بارادته الحرة وعدم اعترافه
بأي نوع من التحكم والوصاية على سيره من قبل الآخرين.
وكل الحركات التحررية انطلقت من نقطة الايمان بحرية
الانسان وإرادته والايان بامكانية تغيير الأوضاع الفاسدة، سواء
على الصعيد الفردي أو الاجتماعي.
إذن.

فالانسان كائن حر، وشعوره بالحرية هو الذي يدفعه نحو
التمرد على واقعه المنحرف للبحث عن واقع أفضل.

الإرادة وعوامل الضغط

صحيح إنّ الانسان يولد حراً، ويعيش حراً، إلا أن هناك مجموعة من العوامل تضغط على الانسان وتلجّ عليه للاتجاه نحو نمط معين من الحياة والفكر.

- فما هي هذه العوامل؟

- وما مدى تأثيرها على اتجاه الانسان؟

قبل أن نستعرض هذه العوامل لا بد أن نضع هنا ملاحظة وهي:

إنّ لهذه العوامل دوراً محدوداً في توجيه سلوك الانسان وحياته، وهذا الدور هو: زرع (القابلية) في الانسان للاتجاه بشكل معين، ولكنها يستحيل أن تحدد اتجاه الانسان بشكل جبري، وأن

تفرض عليه سلوكاً معيناً في الحياة بصورة قدرية. إنها مجرد عوامل
(مساعدة) وليست عوامل (رئيسية) ذلك لأن العامل الرئيسي هو:
إرادة الانسان الحرة التي لا يقف أمامها شيء.
وهذه العوامل هي كالتالي:

(١)

الوراثة

لا تنحصر مهمة العامل الوراثي في نقل الملامح الجسدية من الأبوين إلى الأولاد فحسب، بل إنه يقوم بصيغ نفسية الأطفال وفق الخصائص العقلية والصفات النفسية المتوفرة لدى الأبوين - أيضاً - فالطفل الأفريقي لا يكتسب من أبويه: البشرة السوداء، والأنف الأفتس، والشعر المجعد فقط، بل يكتسب الصفات النفسية الموجودة لديهما من السذاجة، والبساطة، وما أشبه ذلك أيضاً.

وأكثر من ذلك، تقول الاكتشافات العلمية: إن أثر العامل الوراثي لا ينحصر في جيل واحد، بل قد يمكن أن يتعداه إلى أجيال متعددة.

والسؤال الآن هو: هل للعامل الوراثي أثر حتمي في حياة الانسان؟ وبعبارة اخرى: هل قُدِّرَ للانسان أن يولد مطبوعاً بصفات والديه، أم أنه قادر على أن يصنع من نفسه إنساناً أفضل، متجاوزاً ما كان في والديه من سلبيات وانحرافات نفسية وسلوكية؟

والجواب هو: إنَّ الوراثة ليست كل القضية، وهي لا (تفرض) على الانسان أي شيء إلا بقدر استجابته لها، فالقيادة الحقيقية للانسان إنما هي بيد (إرادته) وهي بالطبع منطقة حرة لا تستطيع أية قوة من القوى إجبارها على سلوك معين.

والانسان ليس عبداً لسلوك وصفات والديه، وليس يولد مجبوراً على طريقتهما في الحياة، بل إنه قادر على أن ينتهج طريقاً مختلفاً عن طريقتهما، وكم رأينا من الآباء الصالحين الذين فسد أبناؤهم وانحرفوا عن خط السماء؟ وكم رأينا من الآباء المنحرفين والمنغمسين في الفساد والجريمة وقد نهج أولادهم طريق الصلاح والخير في الحياة؟ ذلك لأن الله:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾^١.

كما جاء في القرآن الكريم.

وإذا كانت الأمراض الجسدية - وهي امور لا اختيار للانسان فيها - غير حتمية الانتقال من الآباء الى الأبناء، فان الخصائص النفسية والروحية - وهي قضايا يكون اختيارها بيد الانسان وليس جبراً وفرضاً - ليست ضرورية الانتقال هي الاخرى.

إذن، فلا يصح أن يبرر الواحد منا قائلًا: (إنَّ أبي كان منحرفاً، أو متخاذلاً، أو كسولاً، وأنَّ عليَّ أن أكون كما كان، وأنَّ ذلك قدر محتوم لا أستطيع الانفكاك منه) ذلك لان الانسان حر، ولا يستطيع أي عامل خارجي اجباره على نمط معين في حياته إذا أراد هو خلاف ذلك.

١ - سورة الروم، آية ١٩.

٢ - يقول الدكتور الكسيس كاريل - وهو طبيب نفسي شهير -: (تنتقل أمراض معينة كالسرطان والسل... إلخ.. من الآباء إلى الأبناء، ولكن كاستعداد فقط، وقد تعوق أحوال النمو ظهور هذه الأمراض) عن كتاب (الانسان ذلك المجهول) ص (١٩٦).

(٢)

التربية

تلعب التربية دوراً هاماً جداً في توجيه حياة الانسان، إذ في هذه المرحلة يتقرر مستقبل الانسان ومصيره، بحيث إننا نستطيع أن نكتشف مستقبل الفرد من خلال تربيته في الطفولة.

ومن هنا يقول العالم النفساني الأميركي (واتسون): «أعطني إثني عشر طفلاً وهيء لي الظروف المناسبة أجعل ممن أريد منهم طبيباً حاذقاً، أو استاذاً قديراً، أو مهندساً بارعاً، أو رساماً، وحتى لو شئت لصاً أو شحاذاً».

وهو كلام واقعي وصحيح، ذلك لأن التربية التي يتلقاها الفرد تحدد اتجاهاته وميوله، وترسم خارطة سيره في الحياة، ويظل للتربية هذا الدور الهام إلى أن يغمض الفرد عينيه ويذهب إلى ربه الكريم.

والسؤال الآن هو: هل للتربية التي نلقاها أثر حتمي لا يمكن الخلاص منه؟

والجواب: كلاً، إنَّ للتربية أثراً كبيراً في الحياة الانسانية، ولكنها لا تحتم على الانسان شيئاً، فالانسان سيد نفسه، وأي عامل خارجي سيظل عاجزاً عن التدخل في حياته إلا إذا سمح الانسان له بذلك.

ودور التربية هو: وضع خريطة حياة أمام الانسان وإنضاج خياراته، ويبقى عليه هو أن يختار أو يرفض أن يتأثر أو يدع. والدليل واضح وبسيط: إنَّ الواقع الخارجي يكذب (جبرية) التربية، ونحن نرى في المجتمع اناساً كثيرين تربوا على نمط خاص، ولكنهم - بعد أن كبروا - تمردوا على تربيتهم ومارسوا سلوكاً من طراز آخر مناقض تماماً لما تتطلبه تلك التربية التي تلقوها.

فمثلاً: هناك الكثيرون الذين ولدوا في أحضان الغنى والترف، وتلقوا تربية مرفَّهة مستكبرة، ولكنهم ثاروا على واقعهم، وانتزعوا أنفسهم من الحياة الترفية واللامسؤولية ليصيروا مناضلين من أجل

المحرومين والمستضعفين، وليطالبوا السلطات بالعدالة والحرية.
وهذا (مصعب بن عمير) الشاب المدلل الذي رباه أبواه على
العيش المرفه الرغيد، فكان يأكل أفضل الأطعمة، ويرتدي أفخر
الملابس، ويتعطر بأجود العطور، دون أن يعمل شيئاً ودون أن
يتحمل أية مسؤولية على عاتقه، هذا الشاب ينسلخ فجأة من حياته
العابثة ليقترحم حياة رسالية جديدة، بدءاً من إيمانه على يد الرسول
الأعظم ﷺ، ومروراً بتحملة لتبعات هذا (الايمان) من جوع،
وفقر، وتشرد، وانتهاءً باستشهاده في سبيل الله والعدالة خلال
إحدى المعارك الإسلامية.

ما الذي غيره؟ وكيف استطاع أن يتمرد على التربية المترفة التي
تلقاها؟ إنها (الارادة) التي تقلب حياة الانسان رأساً على عقب،
وانه التفكير المنطقي الصحيح الذي يخلق الانسان خلقاً آخر،
فيصبح وكأنه كائن جديد.

وهذا أحد شهداء كربلاء - واسمه (زهير بن القين) - كان قد
تلقى تربية سلبية تجاه أهل البيت لدرجة أنه كان يكره رؤية الإمام

الحسين عليه السلام، إلا أن ارادته حولت حياته إلى شكل آخر فأصبح
قرباناً بين يدي الإمام الحسين عليه السلام بعد أن عرف الحق واختار السير
في ركابه.

إذن..

فتبرير الفساد والانحراف بالتربية التي تلقاها الفرد ليس إلا
تبريراً سخيلاً يريد الانسان - من خلاله - تغطية جبهه وعجزه
وتواكله، وهذا ما لا يقبله الله سبحانه بأي حال من الأحوال.

(٣)

الأجواء والظروف

كما يتكيف جسد الانسان وفق المناخ الذي يعيش فيه، كذلك تتكيف نفسه حسب لون المحيط أو (البيئة الاجتماعية) التي يعيش فيها، فالفرد الذي يلفه محيط صالح سوف يكون - بالطبع - فرداً صالحاً، عكس الفرد الذي يعيش في مجتمع فاسد، فانه - على الأغلب - سوف يكون فرداً فاسداً، وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم حين يقول:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِثًا﴾^١.

والسبب في ذلك هو: طبيعة علاقة الفرد مع بيئته، إذ أن

١ - سورة الاعراف، آية ٥٨.

الانسان غير قادر على العيش منعزلاً لوحده، ولا بد أن يدخل صميم المجتمع، وحينذاك - ولأنه ليس بحجر - لا بد أن يتأثر بالاتجاه الاجتماعي شيئاً ما.

وبالطبع لا يكون هذا التأثير خارجاً عن إرادته هو الآخر، وإنما يتأثر الانسان بالاتجاهات الخيرة في البيئة الاجتماعية بقوة إرادته، ويتأثر بالاتجاهات السلبية فيها بضعف إرادته وهزيمته النفسية.

أما السبب الآخر الذي يدفع الفرد للاصطباغ بلون البيئة الاجتماعية فهو: صعوبة الشذوذ عن المجتمع في النفس الانسانية، والخوف من المضاعفات التي قد تحدث عندما يسلك الفرد طريقاً مغايراً لطريق مجتمعه، إذ في هذه الحالة يكون الفرد عرضة لكثير من المتاعب والصعوبات كان في غنى عنها لو استسلم للمجتمع، وخضع له في تفكيره وسلوكه.

إنَّ كثيراً من الناس لا يعملون للدين ولا يناضلون طواغيت الأرض لخوفهم من (كلام) الناس، ولانسجامهم مع واقع المجتمع، ذلك الواقع الكسول المترهل، وعندما تسأل الواحد

منهم: لماذا لا تتحرك باتجاه أي تغيير جاد وفعال؟ يجيبك بكل صلافة: يا أخي: إن المجتمع لا يسمح بذلك، والظروف غير ملائمة، والرياح تجري بما لا تشتهي السفن!

وربما لتأثره بالبيئة الاجتماعية، وتعلقه للمحيط الذي يعيش فيه يسلك في حياته بشكل مناقض تماماً لما يؤمن به وهو يبرر حالته هذه بقوله: هل تريد أن ينهشني الناس بكلامهم؟ هل تريد أن ألقى بنفسي في التهلكة؟ هل تريد أن أصبح عرضة لأذى الناس؟. والاسلام - بالطبع - يرفض هذا المنطق الجبان، فالمجتمع والظروف لا يفرضان على الانسان شيئاً إلا عندما يتنازل - هو - عن مواقفه المبدئية وأفكاره، ودائماً يجب أن تكون للانسان مواقف ثابتة، وأن تكون له أصالة رسالية نابعة من عمق القيم الاسلامية التي يعتنقها، وألا تكون مواقفه رجراجة مهزوزة حسب اشتهاؤ الناس أو كلامهم، فالانسان ليس عبداً مملوكاً للمجتمع حتى يتأثر بكلامه، بل هو كائن حر مستقل عن الآخرين، وعليه أن يتصرف على هذا الأساس، وانطلاقاً من القيم الایمانية التي يؤمن بها.

إنَّ الاسلام يرفض - أولاً - منطق (الجبرية الاجتماعية) ومنطق (حشر مع الناس عيد) ويتحدث القرآن الكريم عن الحوار الذي يحدث بين أهل النار وأهل الجنة فيقول:

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾^١.

فالخوض مع الخائضين - الذي يعني التبعية للمجتمع الفاسد، واتخاذ كميّاس للقيم والمفاهيم - يعتبر أحد الأسباب الرئيسية لدخول جهنم، فالفرد الذي يفقد (الارادة والاختيار) وهو يعيش في مجتمع جاهلي متخلف، سوف يكون سلوكه وفق سلوك هذا المجتمع، ولأن المجتمع الجاهلي يتجه بشكل طبيعي نحو الحياة المادية والحيوانية، فان هذا الفرد سوف يتحول - هو الآخر - حيواناً في هذا القطيع، وهذا يعني الإجرام، وبالتالي: النار.

والاسلام يرفض - ثانياً - تبرير الكفر، والكسل، والجمود بـ:

١- سورة المدثر، آية ٣٩-٤٥.

أَنَّ الظروف أجبرتني على ذلك. أو: أَنَّ الظروف لم تسمح بالعمل.
أو: ماذا أملك أمام القدر الحتمي؟ وترى القرآن الكريم يستعرض
الحوار الذي يدور بين أهل النار:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ
إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: لَوْلَا
أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا: أَتَخُنُّ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ
الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ.

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا، هَلْ
يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^١.

(إن المستكبرين) هم كل الطغاة والجبابة في الأرض. أما
الذين (استُضْعِفُوا) فهم المحرومون والمسحوقون في المجتمع تحت

١ - سورة سبأ، الآيات ٣١ - ٣٣.

عجلة الفئات المستأثرة والمستكبرة.

وعلى الفئة المستضعفة أن تثور على واقع الاستضعاف والحرمان، وتتحرر من أسار المستكبرين، وتحقق (حريتها) واستقلالها في الحياة.

وإذا لم يفعل المستضعفون ذلك، واستسلموا لواقعهم المر، وتخاذلوا عن مقاومة المستكبرين، وعاشوا خائعين تحت ضغط الارهاب والخوف، فانهم سيتحملون تبعه تقاعسهم هذا، ولا يشفع لهم التبرير بـ(مكر الليل والنهار) الذي هو عبارة اخرى عن (الظروف) التي يحاول المستضعفون المتخاذلون تبرير استسلامهم وخضوعهم أمام الله يوم القيامة، ولكن هل ينخدع الله؟ إنه يقول: لقد أعطيتكم الحرية والاختيار، ولم يكن بإمكان الزعماء والمجتمع اضلالكم بالجبر والإكراه. فلماذا تنازلتم عن حريتكم واستسلمتم لهم ولهفتم وراء رضاهم؟ لماذا اتخذتم زعماءكم ومجتمعكم شركاء لله سبحانه، وعبدتم واقعهم وسلوكهم؟ إذن.. ذوقوا العذاب، ولتظل الأغلال في أعناقكم لتسحبكم الى نار جهنم خالدين فيها،

وبئس المصير!

وتشتمل الآيات القرآنية السابقة على إثارة لإرادة الانسان، ولشعوره بالحرية، وقدرته على الاختيار، وهي تحفز كل محرومي الأرض والمستضعفين في الحياة نحو الثورة والتغيير والاصلاح. وهذا يريد القرآن أن يوحي للانسان أن عليه - هو وحده - أن يختار طريقه في الحياة، فكما الاستعباد السياسي والاقتصادي مرفوض، كذلك الاستعباد الفكري والعقائدي مرفوض. ذلك أن من غير الصحيح تقليد المجتمع في كل ما يفعله، فلا يجوز للانسان أن يكون إمعة، يؤمن إذا آمن الناس، ويكفر إذا كفر الناس، وينحرف إذا انحرف الناس.

روي عن الفضل، عن الامام موسى الكاظم عليه السلام قال: قال لي: «أُبْلِغَ خَيْرًا وَقُلْ خَيْرًا وَلَا تَكُونَنَّ إِمَّعَةً». قال الفضل: وما الإمعة؟ قال: «لَا تَقُولَنَّ: أَنَا مَعَ النَّاسِ: وَأَنَا كَوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ. إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا هُمَا نَجْدَانِ: نَجْدٌ خَيْرٌ وَنَجْدٌ شَرٌّ، فَمَا بَالُ نَجْدِ الشَّرِّ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الْخَيْرِ؟»^١.

١ - بحار الانوار، ج ٢، ص ٢١.

ومن هنا يقول القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾^١.

ولا تعني هذه الآية: الانعزال عن المجتمع، وعدم الاهتمام باصلاحه لو انحرف، ذلك لأن القرآن ذاته يؤكد وجوب الإصلاح ويقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^٢. ويقول أيضاً: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^٣.

بل تعني هذه الآية الاستقلال الكامل للشخصية المسلمة والاستمرار في خط الالتزام بالمبادئ الصحيحة حتى لو انحرف كل الناس. فما هو ربط المسلم بالآخرين حتى ينحرف لو انحرفوا؟ وهل هو جزء منهم وتابع لهم لكي يقلدهم في ما يعملون؟ إنه

١- سورة المائدة، آية ١٠٥.

٢- سورة التحريم، آية ٦.

٣- سورة آل عمران، آية ١١٠.

كائن حر يتحمل مسؤوليته بنفسه، وسوف يوضع في قبره وحده، وسوف يحاسب وحده، ويجازى على أعماله وحده. فلماذا العبودية للآخرين؟! ولماذا الخوض مع الخائضين؟

إذن.. فالأجواء والظروف - هي الاخرى - لا تستطيع إكراه الانسان على اختيارٍ معيّن إذا انهزمت إرادته قبل ذلك، فإن البيئـة والظروف قد تضغط على الفرد، ولكنها لا تمتلك القدرة الكافية لإكراهه ولتحريف مسيرته في الحياة. ذلك لأن الانسان كائن حر، ولأن إرادته فوق كل التحديات!

(٤)

الشهوات

خلق الله الملائكة عقولاً مجردة لا يعرفون غير الطاعة والامتثال، فهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^١ و«مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرُكَّعُونَ وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَضِبُونَ»^٢ - كما جاء في خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) - ولذلك فإنهم لا يقتربون إلى المعصية ولا يفكرون فيها، إنهم حسب تصريح القرآن الكريم:

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^٣.

وخلق الله الحيوانات كتلة هائجة من الشهوات والغرائز، فهي تتصرف بوحى من غرائزها من أجل إرواء شهواتها، كالأكل،

١ - سورة التحريم، الآية ٦.

٢ - نهج البلاغة (صحيح الصالح)، ص ٤١.

٣ - سورة النحل، آية ٥٠.

والشرب، والجنس، وغيرها، ولا همّ للحيوان إلا ذلك. لأنه لا يحمل معه هدفاً أو عقلاً أو تفكيراً.

وخلق الله الانسان (قبضة من تراب الأرض، ونفحة من روح السماء) فأودع فيه العقل - وهو البعد السماوي - وغرس فيه الشهوة - وهي البعد الأرضي -. والعقل هو المرشد الشفيق الذي يدل الانسان على ينابيع الخير والبركة، ويشعل الضوء الأحمر أمامه في طريق الشر والهاوية، في الوقت الذي تعصف فيه الشهوات بالانسان عصفاً، وتحاول أن تجره إلى الدرك الأسفل. ولذلك كان على الانسان أن يحكّم عقله في الواقع لكي لا تجرفه الشهوات، وبالخصوص: شهوة الجنس.

ورغم عنف الغريزة الجنسية وقوتها الهائلة، وضغطها الشديد، فان باستطاعة الانسان أن يرتفع فوقها فيتجاوزها بسلام. وما الغريزة الجنسية إلا واحدة من الغرائز المودعة في الجسد. وكما يستطيع الانسان أن يتجاوز سائر غرائزه فان باستطاعته - أيضاً - أن يتحدى غريزته الجنسية، ويرفض اغراءاتها العنيفة.

إذا كان الانسان يستطيع أن يمتنع عن الطعام المتوفر أمامه لمدة (٧٢) ساعة متوالية - كما فعل الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام وهما صبيان صغيران في قصة شهيرة، حتى صارا كالفراخ المرتعشة من شدة الجوع.

وإذا كان باستطاعة السجناء أن يضربوا عن الطعام لمدد طويلة قد تتجاوز الـ (١٠) أيام دون أي ضغط خارجي.

وإذا كان باستطاعة الانسان أن يمتنع عن شهواته الاخرى، كالأكل والنوم وغيرها، ولمدد طويلة أيضاً.

إذا كان باستطاعة الانسان كل ذلك، فان باستطاعته أيضاً أن يتحكم في غريزته الجنسية ويوجهها، دون أن تستطيع - هي - توجيهه والتحكم فيه.

إن على كل الرجال أن يكونوا مثل (عيسى) في الورع والعفة، وعلى كل النساء أن يكن مثل (مريم) في التقوى والورع. تصوروا مريم، شابة جميلة في عمر الورود تذهب لتغتسل فتتجرد من ثيابها، وفجأة، تجد أمامها شاباً جميلاً!

ماذا يكون موقفها في هذا الوضع العصيب؟
تعالوا لنستمع إلى القرآن الكريم وهو يحدثنا عن هذه النقطة
الحساسة من حياة مريم فيقول:

﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا*
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا
سَوِيًّا* قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا*﴾.

لقد اعتصرها الخوف، وتملكها الرعب والألم، ولأنها لم تكن
تمتلك سلاحاً تصون به نفسها لذلك استغاثت بالله سبحانه قائلة:
﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ...﴾ ولكنها ارتاحت حينما اكتشفت أن
مَنْ تراه ليس بشراً وإنما هو مَلَكٌ مرسل من الله تعالى.

والسؤال الآن هو: كيف يخمد المرء ثورة الجنس في ذاته عندما
تكون في الحرام؟

والجواب بسيط وهو: إِنَّ ذلك يمكن أن يتم عن طريق تذكر
الله والموت والآخرة. وإن هذه لذة عاجلة تعقبها ندامة آجلة.

١- سورة مريم، آية ١٦-١٨.

وهذا هو النبي (يوسف) ﷺ يواجه هذا الموقف بالذات فيتذكر الله فيرفض كل الاغراءات، لقد كانت هذه الاغراءات قوية حقاً، إلا أن تذكره الله جعله يضرب بها عرض الحائط.

يوسف له رصيد من الشهوة، باعتباره شاباً عزباً. وها هي زليخا زوجة عزيز مصر الجميلة تهيب كل الظروف الملائمة ثم تدعوه إلى نفسها.. فلنستمع إلى القرآن الكريم لنرى كيف حدثت القصة:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لَنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^١.

وهذا هو المطلوب من الشاب.

١- سورة يوسف، آية ٢٢- ٢٤.

وكل هذا يعني.. ان ضغط الشهوات غير قادر على مواجهة
(الارادة) الانسانية.

فالانسان باستطاعته أن يتحدى أقوى الضغوط، وأن يصمد في
وجه كل الاغراءات بإرادته وحريته.

فلا العامل الوراثي يعني (جبر) الانسان باتجاه معين.

ولا (التربية) تعني (القدرية) في توجيه سلوك الانسان.

ولا (البيئة والظروف) تعني عدم القدرة على الانفلات من
المفاسد.

ولا (الشهوات) تستطيع حذف دور (الارادة الانسانية) التي
هي الميزة الأساسية بين الانسان والحيوان.

مهدي العلوي

المحتويات

أمانة الحرية والمسؤولية.....	٥
الإرادة وعوامل الضغط.....	٨
(١) الوراثة.....	١٠
(٢) التربية.....	١٣
(٣) الأجواء والظروف.....	١٧
(٤) الشهوات.....	٢٦

كل واحد منا يتحسس أثر هذه (الحرية) في حياته، ويشعر - في
قرارة نفسه - بأنه كائن حر، يمتلك كامل القدرة على الاختيار دون أي
إكراه أو جبر.. وأنَّ باستطاعته أن يتحكم في الغرائز، والأوضاع،
والظروف.. وأن يتحكم في سيرته وحياته.
والشعور بالحرية شعور فطري أودعه الله تعالى في الإنسان دون أن
يكون للالوهام أو التخيلات أي أثر فيه.
ويعتبر القرآن الحكيم هذه الحرية (أمانة) عند الانسان، وبها يمتاز
الانسان عن سائر المخلوقات في السماء والأرض.

